مجلة أبعاد
مجلد 11، العدد 01 (خ)، 2024
ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

مناهج التّأليف النّحوي عند القدماء
-دراسة موازنة بين حروف المعاني للزّجاجي والمفصّل للزمخشري-

Methods of grammatical composition among the ancients
-A study of the balance between the letters of meanings by Al-Zajjaji and Al-Mufassal by Al-Zamakhshari-

أمينة فريك * Amina Frik
لسانيات الخطاب
المركز الجامعي عبد الله مرسلي– تيبازة– (الجزائر)
Aminafrik96@gmail.com
سمية غول Soumia Ghoul
لسانيات عربية
المركز الجامعي عبد الله مرسلي – تيبازة– (الجزائر)
ghoul.soumia97@gmail.com

**********;

تاريخ الإرسال: 2024/02/03	تاريخ القبول: 2024/08/02	تاريخ النشر: 2024/08/04

ملخص:

حظي النحو منذ البدايات للعديد من البحوث والدّراسات التي وقفت على أصوله وحدوده، فكان لابد من علمائه الأخذ والاستناد على مناهج معينة تساعدهم في تأليفه في سبيل تقعيده واتخاذه كخطوة أولية في دراسة النظام اللغوي، عن طريق تقويم المُعوَج وإعادة الصياغة، فكان همّ النحويين مقتصرا آنذاك على استكمال النّحو والإحاطة بمادته من أجل النهوض بالفكر وتحرير اللسان وعليه تنوع البيئة العلمية التي ولّدت العديد من المؤلفات النحوية، وعليه فقد جاءت هذه الورقة البحثية لتسليط الضوء على كتابين نحويين مهمّين هما: حروف المعاني للزجاجي (ت340ه)، والمفصل للزمخشري (ت538ه)، قصد الكشف عن المنهج المتبّع فيهما من خلال الشرح والتحليل، ومحاولة إقام الموازنة بينهما.

الكلمات المفتاحية: المنهج النحوي؛ الزجاجي؛ حروف المعاني؛ الزمخشري؛ المفصل.

Abstract:

Since the beginning, grammar has received many researches and studies that examined its origins and limits. It was necessary for its scholars to adopt and rely on certain methods that would help them compose it in order to standardize it and take it as an initial step in studying the linguistic system, by correcting the crooked and reformulating, so the concern of grammarians was limited at that time. To complete grammar and understand its material in

* المؤلف المراسل: aminafrik96@gmail.com

order to advance thought and liberate the tongue, and accordingly, the diversity of the scientific environment that generated many grammatical works. Accordingly, this research paper came to shed light on two important grammatical books: Huruf al-Maani by Al-Zajjaji (d. 340 AH), and Al-Mufassal by Al-Zamakhshari (d. 538 AH), with the intention of Revealing the approach used in them through explanation and analysis, and trying to establish a balance between them.

Keywords: Grammatical approach; vitreous; Letters of meanings; Al-Zamakhshari; The joint.

1.مقدّمة:

تمثل اللّغة ذلك الحاصل التام لكل ضروب الفكر في موروث المجتمعات فكانت العربية أحد اللغات التي أضحت نموذج حضاري ومنبع ثري ومصدر لا ينضبّ، منذ أن عرفها الوجود، وقد سعى العرب منذ القرن الأول للهجري إلى بناء تراث جديد لهذه اللغة من أجل حملها على طابع صحيح وقوي، فعمدوا بذلك إلى وضع ضوابط الكلام التي يعصمون الناس بها من الوقوع في اللحن، فنشأت بدايات الفكر النحوي لديهم حين فكرّوا في إعادة صياغة الكلم والعمل على تأليف وتصنيف النحو العربي من خلال معالجاتهم لفنون القراءات وغيرها من العلوم المتصلة بالتفسير، وقد انتهى الأمر إلى تراكم جهود كثير من علماء العربية أشهرهم سيبويه(ت:185ه) الذي كان بمثابة القارئ، والناقد والمصنف الأول لمؤلفات النّحو آنذاك، ولا شك أنّ كل هذه البحوث كان لها منهجا معينا ساعدهم في التأصيل لجل الدراسات اللغوية النحوية بحيث أصبح لها سمت جديد خاصة بعد اشتغال العرب بالفقه وأصوله الذي يحمل في طياته ضوابط محكمة تفيد في معرفة الصحة والعلة في السند.

ولم تكن ثقافة النحويين في القرن الرابع واحدة، بل تباينت عمقا ونضجا وتنوّعا، بالإضافة إلى أنّهم لم يكونوا مقيدين بمنهج واحد يعتمدون عليه في تأليف مصنفاتهم، الأمر الذي جعل النحوي يضع لنفسه المنهج الذي يراه مناسبا ومطابقا لدراساته، ومن هنا تأثر النحاة بالثقافات المختلفة فكانت لهم آراء متمايزة تجاه القضايا المتعلقة بالنحو العربي، وقد كان رؤوس النحاة ومنهم: أبو القاسم الزجاجي، والزمخشري يختلفان في المنهج والأسلوب تبعا لاختلاف ثقافاتهم الشخصية.

وفي هذا السياق يأتي هذا المقال ليقف عند بعض العناصر من خلال إثارة الإشكالية التالية: كيف تعرّض كل من الزجاجي والزمخشري للقضايا النحوية؟ وفيم تتجلى قيمة كل من المصنفين حروف

2.المنهج النحوي: مقاربة مفاهيميّة.

1.2. لغة:

جاء في معجم العين "طريق نَهْجٌ: واسع واضح، وطرق نهجة. ونهج الأمر وأنهج أي: وَضُحَ، ومِنْهَجُ الطّريق: وضَّحَهُ" (الفراهيدي، 2003، الصفحات 270-271) فالمنهج من هذا المنظور هو الوضوح.

وأورد ابن فارس(ت:395ه) النَّهْجُ: الطّريقُ، وقد نهج فلان الطّريق: بيّنهُ، وهو منهاج مستقيم، وأتانا فلان ينتهج، إذا أتى مهورًا منقطع النّفس، وضربته حتّى أنهج، أي سقط (ابن فارس، 1986، صفحة 895) وعليه؛ فالمنهج يطلق ويراد به البيان.

أمّا ابن منظور(ت:711ه) بالإطلاق في ذات التحديد إلى توضيح معنى المنهج في قوله: "أنهجَ الطّريق: وَضحَ واستبان، وصار نهجاً واضحًا بيّنًا... والمنهاج الطّريق الواضح، واستنهج الطّريق: صار نهجاً" (ابن منظور، د.ت، صفحة 383)

2.2.اصطلاحاً:

يعدّ المنهج العمود الأساسي في أي بحث أو دراسة على اختلاف التّخصصات والتّفرعات، وهو بمثابة الطّريق التّي يتّبعها الباحث للوصول إلى الحقائق والنّتائج المتوخاة.

وفي سبيل الكشف عن دقائق المنهج في مجال علوم النحو، لابد لنا أن نتعقب المقاربة المفهومية التي يعكسها مصطلح النحو، من أجل فهم الكيفية التي تترافق وفق متطلبات هذا العلم، وكذا إقران مصطلح المنهج به، باعتبارها الكاشف الأساس الذي يعوّل عليه الباحث من أجل الوصول إلى حقيقة معينة قصد إدراكها وإدراك ماهيّاتها وعملها.

وعلم النّحو من العلوم الإسلامية جليلة النفع، لا يبتعد عن مسائله من غرق أوّل الأمر في تعلّمها، لذلك كان إقبال العلماء والدارسين في مجال علم اللغة عليه، خطوةً رئيسيّة في تيسير فهم المقصد الأعلى من دراسته، وهو حفظ القرآن الكريم من اللّحن، وصون اللغة العربية من الانحلال، فصنّفوا عدّة مؤلّفات طِرازُها مادة النحو -من حيث الارتكاز على قواعده-، وهم كثر ممن حاولوا الوصول إلى معاني القرآن ودراسة ظواهره انطلاقا من النحو والإعراب.

فلم تكن محاولته في دراسة الظواهر اللغوية النحوية هكذا عبثاً، بل كانت مقوّمة بمنهج دقيقٍ، أطلق عليه لاحقا بالمنهج النحوي، نظرا لفائدته العظمى في تسهيل عمل الباحث، الذي يسعى إلى استنباط الحقائق المركونة على اللغة، فيكون النِتاج في الأخير دفع الحقائق نحو البيان والإيضاح.

والمنهج النّحوي هو استنباط واستجلاء القواعد اللّغوية بصورة دقيقة، اتكاءً على العقل وسعة المعرفة، وبناءً على الملاحظة والعلل، ثمّ اتّخاذ هذه القواعد كمعيار للخطأ والصّواب (الياسري، 2003، صفحة 376)؛ وهذا الاستنباط يكون بعد استقراء ووصف كلام العرب، كما فعل جباهذة العرب القدامى على غرار الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت:175ه)، وسيبويه(ت:180ه)، كما أنّ المنهج النّحوي هو اتّباع اللّغويين والنّحويين الاستدلال العقلي المنطقي في استخراج واستنباط القواعد اللّغوية.

ومن زاوية أخرى يقوم المنهج النحوي على استقراء واتّباع المأثور عن العرب، واستخدام العمليات الذهنية من خلال إعمال الفكر لتأصيل القواعد والنّواميس التّي تحكم وتضبط الكلام العربي الرّصين، وذلك من مصدرين أساسيين هما الرّواية والسّماع، وينبني المنهج النّحوي على أصول ثلاثة هي: القرآن الكريم وما تعلق به من قراءات، والحديث النّبوي الشّريف، وكلام العرب شعرًا ونثرًا (بزاوية، 2017، الصفحات 123-124)، فتكون هذه الأصول السّالفة الذّكر المادة الخام للتّنظير النحوي، والأرضية الخصبة لتأسيس وإرساء مبادئ وضوابط الكلام العربي التّي تحفظه من الوقوع اللّحن والتّصحيف والتّحريف.

وقد كان تركيزنا واقع على كتابين نحويين مهميّن في مجال علم اللغة، وهما كتاب حروف المعاني للزجاجي، وكتاب المفصل للزمخشري، وسنحاول في هذا الصّدد دراسة كلّ منها انطلاقا من التعريف بهذين الباحثين، من أجل فهم ما اعترى مصنفيهما من دقائق في اللغة العربية.

3.التعريف بالزّجاجي(ت:340ه):

هو "أبو القاسم عبد الرحمان الزجاجي" (الزجاجي، 1986، صفحة 11)، لُقّب بالزجاجي نسبة إلى شيخه أبي إسحاق إبراهيم بن السرّي الزّجاج الذي كان من أهل الفضل والدّين (السيوطي، 1979، صفحة 411)، وقد نسب هذا اللقب لشيخه لخرطه الزُّجاج من أجل التماس التعليم مقابل ما يجنيه من تلك الصنعة (السيوطي، 1979، صفحة 411). ولد

بنهاوند (الإشبيلي، 419هـ، صفحة 63) وقيل بصيمرة (السيوطي، 1979، صفحة 77)، نزل ببغداد وصحب شيخه حتى برع في النّحو، قم انتقل إلى الشام وأقام بحلب مرة ثم غادرها إلى دمشق، حيث أملى على طلابه وحدّثهم عن الزّجاج (الزجاجي، 1986، صفحة 12).

من شيوخه: الزّجاج، وابن السراج، والأخفش الأصغر، وأبو بكر الأنباري وأبو موسى الحامض، وابن كيسان، وابن دريد والطبري، وابن شقير، وابن الخياط، واليزيدي... (الإشبيلي، 419هـ، صفحة 63) وغيرها ممن تتلمذ على يدهم من أجل تحصين العلم وتعليمه.

صنّف العديد من المؤلفات اللغوية نذكر منها: الجمل، والأمالي، والإيضاح في علل النحو، واللاَّمات، ومعاني الحروف، ومجالس العلماء، والإبدال والمعاقبة والنظائر واشتقاق أسماء الله الحسنى (الإشبيلي، 419هـ، الصفحات 63-64).

وقد اختلفوا في سنة وفاته ومكانها، فقيل أنه توفي بطبرية في رجب سنة تسع وثلاثين وثلثمائة (السيوطي، 1979، صفحة 77) وقيل في ذي الحجة من السنة نفسها، وقيل توفي في دمشق سنة 377هـ أو 399هـ (الزجاجي، 1986، صفحة 12).

4.التوجه التعليمي للزجاجي في كتابه حروف المعاني:

من خلال عنوان الكتاب ومضمونه يتبيّن لنا أنّه عبارة عن شرح للحروف والأدوات ووضوحها، ولعلّ هذا التّوجه التعليمي الذي سلكه الزّجاجي دعاه إلى الاجتهاد في تبسيط قواعد النحو العربي في لغتهم من أجل تيسير فهمها للطلاب وكافة متعلّمي اللغة العربية، وهو الكتاب الذي سنحاول عرض منهجية تأليفه وفق العناصر التالية:

1.4.الغرض من تأليف الكتاب:

يتضح من خلال مادة الكتاب وبالنظر إلى الصعوبات التي يواجهها طلبة العلم أنذاك أنّ الغرض الأساسي من وراء كل هذا الشرح والتيسير، هو غرض تعليمي خاص بالمتعلمين دون سواهم.

ويتجلى هدفه التعليمي في حسن استعمال تراكيب وشواهد تكاد تمثّل الأداة الفعالة التي يستخلص منها المتعلم معاني الحروف أو الأدوات إلى جانب الأسلوب المحكم وتوضيح القضايا اللغوية التي تعتري تلك التراكيب النحوية، ولتوجيه المهتمين في ميدان التعليم إلى بعض المقاربات التي من شأنها تساهم في القضاء على صعوبة تلقي الفكرة والتعامل معها،

ولعلّ كتاب حروف المعاني هو أوّل كتاب مستقل حاول الزّجاجي أن يفرد له بابا خاصا (الزجاجي، 1986، صفحة 17)، لاستشعار أهمية هذه الحروف والأدوات.

2.4.منهج الكتاب: دراسة تحليليّة

يمكن القول أنّ الزجاجي قد اعتمد بشكل رئيسي في مؤلفاته على منهج مضبوط حاول أن يحافظ فيه على سمت النحو العربي بعيدا عن آرائه أو ثقافته الشخصية، فما هو معروف عن أغلب النحاة أنّ الاختلاف الحاصل في ثقافاتهم قد انعكس على مؤلفاتهم، وهذا أمر لافت قد ينتج عنه التمايز المعرفي الذي ينطبع على كل المعارف التي جاء بها صاحب الكتاب.

إلا أنّ الزّجاجي عمِل بطريقة مغايرة دلّت على براعة فكره في المجال اللغوي، حيث أبعد النحو عن علوم عصره (سعود، 2005، صفحة 383)، من أجل التركيز على المادة المعرفية دون إحداث أي خلط مفهومي في عناصرها الداخلية، وسنحاول في هذه النقطة التركيز على المنهج الذي اتّبعه الزّجاجي في خدمته الجليلة لمصنفات النحو، وذلك من خلال التطرّق إلى قراءة كل ما تأتّى في أبواب نحوه بالدراسة والتحليل.

1.2.4.مقدمة الكتاب:

جاءت في مقدمة المصنَّف أنه عبارة عن "كتاب حروف المعاني ... وجاء في آخره تم كتاب حروف المعاني والصفات فقد دلّ على أهمية المعاني التي تحملها الحروف في نظر الزجاجي. وقد جاء في مقدمة الكتاب أنه ابتدأها بدعوة الخالق لهديه وتوفيقه الرّشاد في محاولته لوضع كتاب يشرح فيه جميع معاني الحروف وعلى كم وجه يتصرّف الحرف منها (وضحة، 2007، صفحة 288).

2.2.4.طريقة عرض المادة:

لقد نهج الزّجاجي في تناوله الأدوات وعرض معانيها واستخداماتها نهجا نصفه بالعفوية الخالصة، فهو لم يقم بترتيب هذه الأدوات على أساس بنيتها: الأحادية، فالثنائية، فالثلاثية...الخ كما فعل من لحقه بعد ذلك في هذا الفن.

ولم يقم بترتيبها ترتيبا هجائيا على حروف المعجم ولا ترتيبا موضوعيا بل كان يذكر الأداة، ثم يذكر معناها أو معانيها التي تتحدّد من السياق، ثم استخداماتها ويعرض كل وجه منها ويعززه بالشواهد والأمثلة التعليق الموجز (الزجاجي، 1986، صفحة 28).

وقد استمر في كتابه بذكر الحرف ومعناه أو معانيه وما يرد فيه من أساليب، وسنمثّل لذلك شرح الزجاجي في تطرقه لمعاينة الأداة "هل" التي تحمل معنى الاستفهام، كقولك: هل خرج زيدٌ؟، وتكون بمعنى قد (وضحة، 2007، صفحة 289) كما جاء في قوله تعالى:﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُورَا**﴾ (سورة الإنسان: الآية 01).

ويذكر محقق الزجاجي عن المنهج الذي اتبعه المؤلف في كتاب حروف المعاني أنّه لم يورد المعاني المعجمية للحرف أو الأداة، لكنه كان يذكر شاهدا أو تركيبا، ثم يستخلص منه المعنى المراد ويذكر استعمالات الحرف المختلفة في تراكيب مختلفة ثم يذكر دلالتها في كل تركيب، كما تحدّث عن بنية الكلمة. مفردة أو مركبة، واللغات التي ورد فيها، ووظيفة الأداة وعملها أو إهمالها (وضحة، 2007، صفحة 289). حيث أنّ دراسته قامت بشكل رئيسي على السياق الذي ترد فيه الحروف، فجعل من التراكيب اللغوية ذلك القالب الذي تجمع فيه الدلالات المحصلة من تراكم البنيات ووظائفها من أجل معرفة المعنى السليم للحرف أو الأداة.

وقد تناول الزجاجي في كتابه هذا سبعا وثلاثين ومائة أداة بالتعليق والشّرح (وضحة، 2007، صفحة 290)، بالإضافة إلى تخصيصه قسم خاص بحروف الجر الواقعة بعضها على بعض (الزجاجي، 1986، صفحة 45)، هذا ما يجعل الزّجاجي أول نحوي حاول التفرد بحروف المعاني ودراسته على مستوى التركيب والدلالة وأول من قام بدراسة ما يزيد على غيره بعدد الأدوات التي قام بعرضها في كتابه النافع هذا.

كما أنّه قد اعتمد بشكل رئيسي على الشواهد المعروفة في زمانه، فاستعان ب شواهد القرآن الكريم، كونه الكتاب الوافي في شرح معاني الأدوات خاصة تلك التي تحمل أغراض: الاستفهام، والتقرير، والتوبيخ... وغيرها. والتي بلغ عددها أكثر من أربعين ومائة آية كريمة، كما اعتمد على الشواهد الشعرية الموثوقة التي زادت على خمسة وسبعين شاهدا شعريا إضافة إلى المأثور من أقوال العرب الأقحاح الفصحاء (الزجاجي، 1986، الصفحات 29-43). وقد اتصف بالدقة والأمانة في نقله واتسم بالضبط.

ثم إنّ الكتب التي تلت هذا الكتاب سارت على منهج واضح مترابط ومتسلسل (الزجاجي، 1986، صفحة 39)، عكس ما قام به الزّجاجي في تناوله الأدوات، فهو لم يقم بترتيب مصنف موضوعاته كما فعل الآخرون، بل عدّ الرجوع إلى السياق الذي ترد فيه

التراكيب اللغوية ذلك الأساس الصحيح الذي ترتكز عليه بالشرح والتمثيل، من أجل الوصول إلى المعاني دون النظر إلى ترتيب تلك الأدوات حسب حروف المعجم.

3.2.4.القيمة العلمية للكتاب:

لكتاب معاني الحروف قيمة علمية كبيرة تستحق أن تشرح وتقدّم للدارس سهلة ميسرة حتى يفيد منها أكبر قدر من طلاب العلم، فهو كتاب اتصف بأنه شديد الوضوح ميسور الألفاظ لا يوجد فيه من الغموض إلا ما جاء عفويا، حيث تحاشى فيه المؤلف الإكثار من العبارات التي لا تناسب مدارك المتعلمين ولعل هذا ما دعا إلى إقبال الناس عليه، ويعتبر في عصرنا من أولى الكتب التعليمية التي يعوّل عليها في دراسة النّحو العربي.

5.التعريف بالزمخشري(ت:538هـ):

هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري (ابن خلكان، 1977، صفحة 168) ولد بزمخشر في رجب سنة سبع وستين وأربع مئة، كان رأسا في البلاغة والعربية والبيان، وله نظم جيد (الذهبي، 1985، صفحة 154).

كان إمام عصره من غير مدافع، تُشدَّ إليه الرحال في فنونه، سافر إلى مكة، وجاور بها زمانا فصار يقال له "جار الله" (ابن خلكان، 1977، صفحة 169)، وكان ممن يضرب به المثل في علم الأدب والنحو واللغة، لقي الأفاضل والأكابر، كما كان واسع العلم، كثير الفضل غاية في الذكاء، وجودة القريحة، متفننا في كل علم، معتزليا قويا في مذهبه، مجاهرا به، داعية إليه، حنفيا (الداووري، 1983، صفحة 315) له العديد من التّصانيف في التفسير، وغريب الحديث والنحو، وغير ذلك (القفطي، 1986، الصفحات 265-266).

ولعل من أبرز الشيوخ الذين تتلمذ على يدهم نذكر: أبو الخطاب نضر بن بطرة، أبو الحسن علي بن المظفر النيسابوري، أبو حسن علي بن عيسى بن حمزة، أبو سعد الشقاني، أبو منصور الحارثي (الزمخشري أ.، 2009، صفحة 08) وغيرهم كثير من رواد الأدب واللغة والتفسير.

كما ظهر للزمخشري جماعة من التلاميذ أشهرهم: أبو المحاسن إسماعيل بن عبد الله الطويلي بطبرستان، أبو عمرو عامر بن الحسن السمسار بزمخشر، أبو سعد أحمد بن محمود الشاشي بسمرقند، أبو الطاهر سامان بن عبد الملك الفقيه بخوازم، وجماعة سواهم (الزمخشري أ، 2009، صفحة 08) ممّن تتلمذوا على يد هذا العلامة النحوي

المعتزلي، والملاحظ تنوع مدن طلابه مما يدل على شهرته، وأثره البالغ في المحيطين به أين ما ذهب.

وقد ألّف الزمخشري كتبا كثيرة وصلت إلى 49 كتابا تقريبا في علوم التفسير، والحديث، واللغة، والنحو، وعلم البيان، والمواعظ، والفقه، والتاريخ، ولعل من أشهرها: الأجناس في اللغة، الأمالي، أساس البلاغة، جواهر اللغة، ديوان التمثيل، شرح كتاب سيبويه، الكشاف، النموذج، المنهاج، والمفصل، وغيرها (الزمخشري أ.، 2009، صفحة 09).

توفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة (السيوطي، 1979، صفحة 280) مخلفا زخما فكريا وعلميا، ومكتبة شامخة أضحت مصدرا لا يستغنى عنه.

6.منهج الزمخشري في المفصل في علم العربية:

المطّلع على المفصل يدرك أن الزمخشري كان يسعى إلى عرض أهم الأبواب النحوية، وكذا بعضا من القضايا الصرفية بطريقة متقنة مبتكرة كما سنراه في المباحث التالية:

1.6.الغرض من تأليف الكتاب:

يروم الزمخشري من تأليفه للمفصل بسط القضايا النحوية، وإبرازها في صورة ميسرة للمسلمين نظرا لحاجتهم الملحّة لتعلم العربية من نحو وصرف، وسائر فنونها (الزمخشري أ.، 2004، صفحة 31)، ذلك أن فهم القرآن الكريم يستلزم منهم القبض على القواعد النحوية والصرفية؛ فجاء المفصل لتحقيق هذه الغاية النبيلة، وفك سائر العوائق أمام المتعلمين لحصد كافة ضوابط العربية وأصولها، وللتمكن من الوقوف على مقاصد النّص القرآني، ولطائفه التركيبية والإفرادية.

2.6.منهج الكتاب:

إن ثقافة الزمخشري، واطّلاعه على معظم الكتب النحوية، واللغوية التي سبقته مكّنته من صياغة كتابه في صورة متميزة، مستلهما مادته من أئمة النحو، فقد سلك في عنايته بهذه الفصول النحويّة نهجاً جديداً، من شأنه أن يُقوِّم المادّة المعرفية الخاصّة بالنحو، وكذا تتبّعها بالشرح والتحليل، من أجل ذلك سنحاول رصد منهجه المتّبع انطلاقا من التركيز على المباحث التالية:

1.2.6.مقدمة الكتاب:

كانت مقدمة الكتاب بمثابة رد لاذع للذين يحطّون من قيمة العربية، ويحاولون تشويه صورتها وأصالتها، حيث دافع الزمخشري عن قيمة العربية، وأبرز أهميتها العظمى لاسيما في

العلوم الدينية من فقه وتفسير، حيث ذكر سبب تأليفه للمفصل فقال: "ولقد ندبني ما بالمسلمين من الأرب إلى معرفة كلام العرب، وما بي من الشفقة والحدب..." (الزمخشري أ.، 2004، صفحة 31)؛ أي أن حاجة المسلمين لإدراك فنون الإعراب كانت الدافع الأساسي لتأليف المفصل.

2.2.6.طريقة عرض المادة:

استهل الزمخشري كتابه بعد المقدمة بتحديد مفهوم الكلمة والكلام، وجعل الكلام يرادف الجملة، ثم انتقل إلى عرض القضايا اللغوية، مقسما مؤلفه إلى أربعة أقسام: قسم الأسماء، قسم الأفعال، قسم الحروف، وختم بقسم المشترك.

بسط في القسم الأول أصناف الأسماء من مرفوعات كالفاعل، والمبتدأ، والخبر، ثم انتقل إلى المنصوبات نحو المفاعيل وأنواعها، والحال، والتمييز، بعدها المجرورات والتوابع من صفة وبدل وغيرهما، وعرض لأصناف الأسماء من معرفة ونكرة، مذكر ومؤنث، كما أشار إلى الاسم المنسوب والعدد، وكذا المصدر وسائر المشتقات فجمع بذلك بين القضايا النحوية والصرفية، وحاز هذا القسم على النصيب الأوفر من الكتاب.

كان في طرحه لمباحث هذا القسم يستهل الأمر بتحديد مفهوم الباب النحوي على نحو قوله في خبر إن وأخواتها "هو المرفوع في نحو قولك: إن زيدا أخوك..." (الزمخشري أ.، 2004، صفحة 52) فيبين بذلك الحكم الإعرابي ثم يقدم جملة من الأمثلة مع التعليل، مستشهدا بأمثلة من القرآن والحديث وكلام العرب من شعر وأمثال، وأقوال جباهذة النحاة وعلى رأسهم سيبويه على نحو: "إن مالا وإن ولدا وإن عددا" (الزمخشري أ.، 2004، صفحة 53)؛ فهذا قول سيبويه استند عليه الزمخشري لتأكيد رأيه.

أما القسم الثاني فخصص للأفعال، وأصنافه المتعددة نحو: الماضي، المضارع، الأمر، المتعدي، غير المتعدي، أفعال القلوب، أفعال المقاربة وغيرها. وفي عرضه لمادة هذا القسم نبّه في الأفعال الناقصة أن سيبويه لم يذكر كل هذه الأفعال بل اكتفى بنماذج وهي: كان، صار، مادام وليس (الزمخشري أ.، 2004، صفحة 264)؛ وكأنه بهذا يحاول معالجة القضية برمّتها على نحو من التوسع والتكامل في الطّرح.

وإذا انتقلنا إلى القسم الثالث المتعلق بالحروف؛ فسنصادف مادة غزيرة حاولت جمع أنواع الحروف كالحروف المشبهة بالفعل، حروف العطف، حروف التنبيه، حروف الاستثناء، حروف الصلة، حروف التعليل، وغيرها من الحروف، كما أن المتّبع للقسم

الثالث يجد أن الزمخشري قد أخذ برأي الفراء في مسألة الحرفين: ما وإن، حيث ذكر أنهما عند الفراء حرفا نفي ترادفا كترادف حرفي التوكيد في إن زيدا قائم (الزمخشري أ.، 2004، صفحة 318)، كما لمسنا تأثره به في عدة مسائل أخرى مما يعكس تأييده ونصرته لفطاحل النحو وزعمائه.

لقد كان قسم المشترك آخر قسم في الكتاب، وهو يعني بالمشترك الإمالة والوقف وتخفيف الهمزة، والتقاء الساكنين، ونظائرها مما تتوارد فيه الأضرب الثلاثة أو اثنان منها (الزمخشري أ.، 2004، صفحة 375)، وقد عالج هنا كثيرا من القضايا المهمة على غرار الإمالة، الوقف، القسم، الاعتلال، الإدغام ونحو ذلك.

استطاع الزمخشري ببراعته وكياسته حشد عدد هائل من الشواهد تنوعت بين آيات قرآنية، وأحاديث نبوية شريفة، وأبيات شعرية، وكذا الأمثال والحكم العربية، دون أن ننسى أقوال السلف من فحول النحاة وفي طليعتهم الخليل، سيبويه، الفراء، الأخفش، المبرد... وغيرهم من رواد النحو العربي، كل هذا للتمثيل والتدليل، وبسط الرؤى بطريقة مبدعة يأخذ بها العقل، وتستسيغها النفس.

3.2.6.القيمة العلمية للكتاب:

إن العودة إلى التراث النحوي للزمخشري هي عودة إلى إرث لم يفقد جدّته إرث ضل ومازال شامخا بمادته القمينة، ومنهجيته المنطقية، وطرحه المتماسك المؤصل.

لقد اعتبر المفصل من حيث مادته، وتصنيفه، وطريقة معالجته للقضايا النحوية أعظم كتاب ظهر بعد سيبويه، ولعلّ مرد ذلك خلوّه من كل ما يشوب المؤلفات النحوية من الحشو، والاستطراد، وذكر الخلافات، والتعليلات العقلية (عون، 1970، صفحة 89)، التي مثلت عائقا أمام المتعلمين، وجعلتهم ينفرون من النحو العربي، حيث حرص الزمخشري على التسهيل والتيسير.

ولعل الجديد الذي انفرد به عن سابقيه هو عرضه لخطة البحث، وإضافته لقسم جديد هو قسم المشترك (السامرائي، 1971، صفحة 110)؛ أي أن الزمخشري هو أول من قام بتصنيف مادته اللغوية وفق خطة محكمة تساعد طلبة العلم، وتبعد عنهم التشتت الذهني.

ونظرا لأهمية المفصل وتميزه تعددت المؤلفات التي حاولت دراسته من شروح واختصارات ومن أبرزها نذكر: التخمير للقاسم بن حسن الخوارزمي، شرح لأبي البقاء بن

يعيش، سفر السعادة وسفير الإفادة للسخاوى، الإيضاح لعثمان بن عمر بن الحاجب، المحصل لمحمد بن سعد المروزى، شرح لأبي القاسم بن أحمد الصديقي الأندلسي (بروكلمان، 1977، الصفحات 235-236). وغيرها كثير من المؤلفات التي اعتنت بالمفصل شرحا واختصارا وتحليلا ودراسة لمادته الأصيلة الغزيرة.

7.الموازنة بين كتاب «حروف المعاني» للزّجاجي و«المفصل» للزمخشري: دراسة تحليلية.

وبعد النظر في تناول المؤلفين مادتهما يتضح للقارئ أهمية هذين الكتابين، فأما عن كتاب حروف المعاني؛ فهو كتاب سبّاق في ميدانه، متقدم على أسوبائه في تفردّه في البحث عن حروف المعاني –الأدوات- بالإضافة إلى مستوى التراكيب والدلالة فهو رائد في هذا المجال.

ويتّسم أيضا كغيره من الكتب بوفرة الشواهد، والدقة، والوضوح في طرح عباراته وسلامة تراكيبها وسهولتها، وتفرّده أيضا في المنهج الذي يعرض به الأداة، والطريقة التي يبحث بها عن تلك الأداة. فهو يورد الأمثلة من أجل توضيح ما يقصده، ويقوم بتعزيزه بمختلف الشواهد القرآنية والشعرية والقول العربي الفصيح. وهذا ما يميّز الزّجاجي عن غيره النحويين.

وأما عن كتاب المفصل؛ فهو أكبر حجما وأكثر طرحا للمسائل النحوية، كما أنه لا يكتفي بالنحو فحسب؛ بل المتأمل في مباحثه سيجد قضايا صرفية، وحتى صوتية ذلك إن دل على شيء، فهو يدل على ترابط المستويات اللغوية من جهة، وعلى موسوعية وحنكة الزمخشري من جهة أخرى.

كما أنّ الزمخشري قد ابتعد عن الحشو وكل ما قد يعيق المتعلم، ذلك أنه موجه للمسلمين على كافة مشاربهم من عرب وعجم، ولعل هذه الخاصية الفريدة تجعلنا نعد المفصل من بوادر الكتب التي اعتمدت التيسير في الطّرح والعرض دون قصد ذلك.

ويمكننا تصنيف بعض من أوجه التشابه والاختلاف بينهما في الجدول التالي:

معاني الحروف	المفصل في علم العربية
أول كتاب مستقل للحروف ومعانيها.	أعظم كتاب بعد سيبويه.
غياب التبويب والتصنيف.	وضع خطة محكمة عرضها في المقدمة.
خاص بالحروف ومعانيها.	عام لشتى الأبواب النحوية.
كتاب نحوي بامتياز.	يغلب عليه النحو مع الإشارة لمباحث صرفية وصوتية تخدم

	النحو.
ثري بالشواهد من قرآن، حديث، شعر، أمثال، أقوال النحاة.	غني كذلك بالشواهد تنوعت بين آيات قرآنية، أحاديث نبوية، حكم وأمثال، أقوال جباهذة النحاة القدامى.

جدول: يوضح أوجه الاختلاف والتشابه بين كتاب حروف المعاني وكتاب المفصل. (إعداد الباحثتين).

يتضح بعد تطرّقنا لمنهج كل من الزّجاجي والزمخشري والموازنة بينهما، أهمية كل منهما في تيسير القواعد النحوية الموجهة لتعليم فئة مقصودة -طلبة العلم- وذلك من خلال عرضهما لموضوعاتهما بطريقة مبسطة، وبأسلوب محكم شديد الوضوح وبلغة سهلة لا يشوبها الغموض، ولعل هذا الأمر الذي جعلهما يندرجان ضمن التأليف التعليمي الذي يهدف في نهاية الأمر إلى تحسين مستوى المتعلمين بغض النظر عن درجة المستوى المتباين بين الفئات.

8.الخاتمة:

من خلال ما تمّ طرحه سابقا، نخلص إلى مسلّمة مفادها ان التأليف النحوي قد ساهم كثيرا في بسط المسائل اللغوية القديمة، بل وعاد بصبغة منهجية جديدة تساور الأهداف التعليمية التي جاء ليحققها في واقع استعمال النظام القواعدي للغة العربية، لذلك فإنّ النّهج الذي اعتمده كلّ من الزّجاجي والزمخشري بمثابة الطريقة المثلى لبناء الغرض الشامل الذي يحقق المقصد الأعلى من تعليم النحو، ألا وهو تيسيره وفق ما يتطلبه الواقع التعليمي المباشر والخاص بالمتعلّمين والعمل على طرح الدلالات النحوية بأساليب دقيقة وواضحة.

قائمة المصادروالمراجع:

ابن خلكان، م. (1977) .وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمن .بيروت/لبنان :دار صادر.
ابن فارس، أ (1986) .مجمل اللغة .بيروت/لبنان :مؤسسة الرسالة.
ابن منظور، م) .د.ت) .(لسان العرب .بيروت/لبنان :دار صادر.
الإشبيلي، أ419) .هـ .(شرح الجمل للزجاجي .جدة/السعودية :جامعة أم القرى.
الداووري،أ .(1983) .طبقات المفسرين .بيروت/لبنان :دار الكتب العلمية.
الذهبي، ش .(1985) .سير أعلام النبلاء .بيروت/لبنان :مؤسسة الرسالة.
الزجاجي، أ .(1986) .حروف المعاني .أربد/الأردن :دار الأمل للنشر والتوزيع.
الزمخشري، أ .(2004) .المفصل في علم العربية .عمان :دار عمار.
الزمخشري، أ .(2009) .تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل .بيروت/لبنان :دار المعرفة.
السامرائي، ف .(1971) .الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري .بغداد :مطبعة الإرشاد.

السيوطي، ج .(1979) .بغية الوعاة في طبقة اللغويين والنحاة .د.م :دار الفكر.
الفراهيدي، ا .(2003) .كتاب العين .دار الكتب العلية :بيروت/لبنان.
القفطي، أ .(1986) .إنباه الرواة على أنباء النحاة .القاهرة: دار الفكر العربي.
الياسري، ع .(2003) .الفكر النحوي عند العرب أصوله ومناهجه .بيروت/لبنان :الدار العربية للموسوعات.
بروكلمان، ك .(1977) .تاريخ الأدب العربي .بيروت/لبنان :دار المعارف.
بزاوية، م .(2017) .النحو العربي ومحاولات تيسيره -دراسة وصفية تحيلية .-وهران :د.م.
سعود، ا .(2005) .خصائص التأليف النحوي في القرن الرابع الهجري .د.م :دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.
عون، ح .(1970) .*تطور الدرس النحوي* .د.م :معهد البحوث والدراسات العربية.
وضحة، ع .(2007) .*التأليف النحوي بين التعليم والتفسير* .الكويت :مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع.